الربيع والخريف

يسرى الأيوبي

نظرت الى مرآتها..

نضرة الربيع ذبلت.. إشراقه اكفهر.. هذا النحول!..هذه التجعـدات!..هـذه الأسلاك الفضية كأنصال تطعن الشباب!.. كيف يخفي الخريف كآبته ليسرّ عينـا ثاقبة شاعرة أبطرها الجمال؟..

أفي المساحيق والصبغات أكسير الشباب؟ وهل يجـدي الزهـرة الذاويـة تلوينها؟ ستهب ريح الشيخوخة فتتناثر أوراق العاطفة صفراء منكمـشة منهوكـة القوى.. الغيوم تنذر وبالقسوة إنذارها..

بمن تستنجد؟ أبالجمال؟ كانت يوما تأسر العيون والقلوب.. نظرة منها افقدت طالبا صوابه فنسي من فرق العمر خمسة عشر ربيعا، وقذف بمستقبل ربما كـان لامعا عرض البحر وخال زواجها نعيم الحياة..

وأذعنت هي للاعج الهوى ومغريات العاطفة هاجرة عزا وثـروة وزوجـا مشغوفا بها وخمسة أطفال.. أما اليوم.. فاين الجمال الآسر لمن شـاهدت عيناهـا خمسا وأربعين شتاء؟ انه لجمال واهن يثير عطف زوجها الشاب لا إعجابه..

بم تستنجد اليوم؟ أبالحب؟ ويحه من عاطفة سريعة الغروب لم يبق منها في قلبه بعد عشرة أعوام حتى ذبالة راعشة تبدد حلكة نفسها.. أبالإخلاص والوفـاء؟ نعم فله قلب رحيم ان فقد القلب المحب.. أما ربته كما لو أنه طفلها، أينسى حنانها؟ وأما ضحت بأمومتها زوجة وبكل مغريات المادة، أينسى تضحيتها؟ فكيف يعرض عنها اليوم؟

انهما زوجان وليسا إلفين للمتعة، أفيترك أحدهما الآخر وهي أحوج ما تكون اليه؟ لماذا كان يرفض دائما أن تنجب له ولدا، هل كان يعـرف أن سـيأتي يـوم يتخلى فيه عنها؟ لو كان لها طفل منه لأمسكته الرحمة به أن يحرمه حنـان الأم.. فكيف تستعيده، كيف تستعيد حبيبها وما لديها ما تجذبه به؟.. آه ما كـان أجمـل

نظراته الوالهة في مطلع قصيدة حبهما، وما كان أدفأها!.. والآن، هـذا البـرود يكويها..

وقامت اليه.. كان غارقا في قراءة كتاب فلسفي، ولم يرفع اليها ناظريـه.. وانتظرت أن يكلمها فلم يشعر بوجودها..

ما أسرع ما يتحول الشوق الى نقمة حمقاء ان أعرض عنه!..نفذ صـبرها فانتزعت منه الكتاب وألقته جانبا..

-مللتني.. انه كتاب يلهيك عني.. أدخل الغرفـة فـلا يـستلفتك دخـولي أوخروجي!..

- طبعا يلهيني الكتاب عنك ياڤدوى.. أريد أن أتثقف.. زملائي أصبح منهم محامون ومهندسون ومؤلفون وتجار ناجحون، بل منهم من رشح نفـسه للنيابـة، ومن أصبح معاون وزير. فهل أبقى حياتي موظفا صغيرا؟ كنت متفوقا يوم كنـت طالبا فلماذا أدفن مؤهلاتي ومواهبي؟

- ألتعرض عني وتبحث عمن تناسبك غيري أنا التي نـزرت نفـسي لـك وضحيت كثيرا من أجلك؟ لم تكن هكذا من قبل..

- كوني عاقلة ياڤدوى.. لو كنت وإياك روميو وجولييت أو قـيس وليلـى لكففنا عن حماقات الصبا بعد عشر سنوات.. عشر سنوات ياڤدوى لاعشرة أيام أو عشرة أشهر.

- إنك في كل مرة تزور فيها أمك ينقلب حالك.. ماذا تقول لك عني هـذه العجوز؟ إنها لاتكف عن حملتها علي، وأنت لابد تتأثر بكلامها.. تغيرت..ثلجـت عاطفتك نحوك!..

أجابها بهدوء قاس وقد ساءه الحديث عن أمه:

- عاطفتي لم تثلج، ربماكنت أحتفظ بها حتى تجد مجالها الرحب.. انك لـم تعودي تثيرينني!

وانفجرت ألما مغيظا:

- أهناك امرأة أخرى تحبها؟

- نعم..

- هل قصرت أنا بحقك ؟

- لأبدا..

- كيف تلفظني هكذا؟ أنسيت الماضي؟ أنسيت فتونك بي؟

- لايعيش الإنسان في أحلام ماضيه يا فدوى وإنما في حقيقة حاضره..

- وتضحيتي يانزار؟

- دفعت ثمنها عشر سنوات من شبابي.. ألا يكفي؟ كنت مجنونـا، كنـت أعمى بل كنا نحن الإثنين.. لم لم نقف لحظة لنفكر في هذه النهاية يا فدوى؟

- أنت السبب يانزار.. أنت أغويتني فعشقت شبابك وحيويتك وقد فقـدتهما في زوجي.. لم أغرمت بي؟ كنت قانعـة قبـل أن أعرفـك.. هجـرت أطفـالي فكرهوني، وزوجي!.. كان يعبدني ولو سألته النجوم لاقتلعها لأجلي.. وأمـا الآن فلمن أعود، لأهل ولا صديق ولا حبيب؟

- لم لم تفكري يا فدوى؟ كنت امرأة ناضجة مجربة، وكانت البلى لاتـزال في جيوبي إذ عرفتك فلم لم تردّيني عن اندفاعي المجنـون؟. والآن هـل تقـوى رابطتنا على الإستمرار؟ أجيبيني أنت.. كوني حكما علي يافدوى بعقلك لابقلبك.. أنا ظلمتك وظلمت نفسي، وأنت ظلمتني وظلمت نفسك.. كلانا قد أخطأ، وكلانـا يقاسي، فإلام؟ ألست شابا؟ ألست في ربيع العمر؟

- نعم..

- وأنت يافدوى ألم تبلغي خريف العمر؟

- نعم..

- الربيع والخريف هل يمتزجان يافدوى؟

واقشعرّ بدنها وأجابت بانكسار وهي تمسح دموع اليأس:

- كلاّ يا نزار!..

وقطّع نياط قلبه هذا الإستسلام الباكي، واحتواها سـاعده بـضمة عطـف وقبلها..

ولكن أعناق، أو قبل تدفئ قلب المرأة ان خلت من عاطفة متقدة؟ ما أقسى الحب عليها عندما يغدو ككسرة خبز يمن بها محسن على معوز مسكين!..

ورفضت الإحسان وبقيت جامدة تنهمر دموعها حاملة نعش نفسها..

* * *